مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي و فلسفة السلم
كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس
مستغانم، الجزائر





الحوار الثقافي

مجلة فصلية أكاديمية محكمة
تهتم بالدراسات العلمية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 10 العدد 01 جوان 2021

مجلة الحوار الثقافي

Le dialogue culturel



Laboratoire de « Dialogue des civilisations, la diversité culturelle et la philosophie de la paix »
Faculté des sciences sociales, Université Abdelhamid Ibn Badis
Mostaganem, Algérie.



Le dialogue culturel

El-Hiouare El Thakafi

Revue périodique académique réglementée spécialisée

Volume 10 Numéro 01 juin 2020

مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي وفلسفة السلم
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، الجزائر
كلية العلوم الاجتماعية



مجلة الحوار الثقافي

دفاتر مخبرية

مجلة فصلية أكاديمية محكمة



بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة الحوار الثقافي

تصدر عن مخبر حوار الحضارات، التنوع الثقافي و فلسفة السلم بجامعة مستغانم، الجزائر.

المجلد 10 العدد 01 جوان 2021

رقم الايداع القانوني:68/CNAISSN/12 :

ISSN 2253-0746

ISSN numérique 2600-6472

كلمة العدد : المثاقفة و التنوع الثقافي

بقلم أ.د عبد القادر مالفي

يشهد العالم عدة تحولات في مجال الثقافة خاصة مع هيمنة مفاهيم تدعوا للمثاقفة و التثاقف، و التي من شأنها ان تؤسس عولمة ثقافية، ففعل التثاقف و المثافغة دخل الثقافة العربية بشكل تلقائي كأحد الإستحقاقات التي نجمت عن الفتوحات الإسلامية داعين إياهم إلى لتخلي عن دينهم وإعتناق الدين المحمدي المبني على التوحيد و الرحمة و الأخلاق الحسنة التي تميز سلوك المسلم عن غيره. ودخلت إثر ذلك المثقافة إلى الثقافة العربية في سياق ممنهج إبتداءاً بحركة "الترجمة من اللغات الأجنبية خاصة اليونانية إلى اللغة العربية مرورا باللغة السريالية و تأسيس بيت الحكمة على يدي الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد. و شهدت المثقافة بمفهومها المعاصر تحولا آخر بفعل الإستعمار الذي عمل على بسط سيطرته على الدول العربية الممزقة، و أول حملة هيمنة ثقافية التي عرفتها البلدان العربية هي تلك شهدتها مصر عام 1798م. وكانت تأثيرات الثقافة الغربية على الثقافة العربية كثيرة ومميزة، بسبب وهن وتخلف الواقع الثقافي العربي يومذاك.

عرف المفهوم عدة مقاومات خاصة مع الحركات الإصلاحية و التحررية، و الذهاب إلى صياغة عدة إشكالات كلها تريد النهضة و تحقيق التقدم و الرفاهية، غير أن مثل هذا الإشكال أفرز عدة تيارات و توجهات أبرزها ما أشار إليه عبد الله العروي في كتابه الإديولوجيا العربية المعاصرة . و برز ضمنها من هم ضد الغزو الثقافي و العودة إلى الأصل و العودة إلى طرح إشكالية الأصالة و المعاصرة ، و من هم مناصرين الوافد على المورث بحكم أن النهضة العربية قامت على العقل و العلم و ابتعدت عن اللاهوت. فلمثل هذه الثنائيات عدة أسماء تدافع عن اتجاهها وفق قناعات تراها علمية.

و في الواقع أن مفهوم المثاقفة منتوج علمي أنتجته الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا، وخصوصاً عندما ابتدع الأنثروبيولوجيون الأمريكيون المثتقافة كمدلول في حدود عام 1880م وأطلقوا عليه مصطلح Acculturation، و هو مفهوم أمريكي بامتياز لما عرفتها أمريكا الشمالية من تنوع و تعدد ثقافي محلي و وافد من أوروبا الشمالية. و في المقابل اعتبره الإنجليز التبادل الثقافي Cultural Exchange ، و فضل الفرنسيون مفهوم التداخل الثقافي Interpénétration culturelle. و هذا الإختلاف يعود إلى المنطق الباكوني الذي يحكم الإتجاه النجلوسكسوفوني و الاتجاه الديكارتي الذي تقوم عليه الفرنكوفونية.

و خلص القول وفق ما ورد في الموسوعات و المعاجم ان المثاقفة تفاعل خياري هدفه الإندماج و تجاوز كل معطى يدعوا إلى التنافر و يبرز كل ما يدعوا إلى الإختلاف و التفوق. و ذلك ما يستدعيه العرق و الدين و اللغة و التفوق الاقتصادي و العلمي و التكنولوجي، و ذلك في غالب الأحيان يغذي التفوق العلمي و التكنولوجي التفوق العرقي و الديني. فكل العوامل التي كانت تساعد على الغزو و الهيمنة أتت المثاقفة

لإبراز قيم الإنسانية المدعمة للمساواة و الإحترام و التسامح و الإعتراف بالآخر. و هذا الإعتراف من شأنه أن يكرس حق الاختلاف و التنوع خاصة الثقافي.

و هذا ما يجرنا إلى إثارة فهوم التنوع الثقافي الذي يشكل احد المفاهيم التي تبنى عليها إشكالية مخبر حوار الحضارات و التنوع الثقافي و فلسفة السلم، فالتنوع الثقافي أقرته اليونيسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة . و اعتبر التنوع الثقافي من قبل هيئة اليونسكو قوة محركة للتنمية، و وسيلة لتحقيق العيش-مع متجاوزين بذلك العقبات التي تطرح على مستوى النمو الاقتصادي وتحقيق التنمية المستدامة، فهو وسيلة لعيش حياة فكرية وعاطفية ومعنوية وروحية أكثر اكتمالاً وفق تعابير فكرية و فنية و أدبية تتجسد في أعمال فنية تقودها الصورة من خلال العدسة، و تقودها الكلمة من خلال القلم و الطباعة. فالمجتمعات تندمج داخل حركة ثقافية عالمية إنسانية بقنوات اتصالية عبر الاستعمال الابداعي لتكنولوجيا الإعلام والاتصال من أجل خلق الحوار بين الحضارات والثقافات مع المحافظة على خصوصيتها الثقافي و إعطاء الإعتبار لتراثها المادي و اللامادي.

و بهذا السياق يجدر بنا الإشارة إلى أن يونسكو، و بالجمعية العامة التي انعقدت في ديسمبر 2002 اتخذت قرارها 249/57 المتضمن إعلانها إقرار يوم 21 ماي من كل سنة يوما عالميا للتنوع الثقافي للحوار والتنمية. و اعتمدته اللجنة الثانية للجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع في عام 2015، و الذي أكد على مساهمة الثقافة في الأبعاد الثلاثة للتنمية المستدامة، ومعترفا في ذلك بالتنوع الطبيعي والثقافي للعالم، وعبر عن إدارك قدرة الثقافات والحضارات على الإسهام في التنمية المستدامة واعتبارها من العوامل الحاسمة في تحقيقها. و لهذا أضحى يتيح لنا فرصة لتعميق مفهومنا لقيم التنوع الثقافي و تعزيز تنوع أشكال التعبير للثقافات المختلفة وفق الأهداف الأربعة التي اعتمدتها اليونسكو في 20 أكتوبر 2005 و التي هي كالتالي:

- دعم نظم مستدامة لحوكمة الثقافة
- تحقيق تبادل متوازن من السلع والخدمات الثقافية وانتقال الفنانين والعاملين الآخرين في مجال الثقافة
- دمج الثقافة في برامج وسياسات التنمية المستدامة
- تعزيز حقوق الإنسان والحريات الأساسية

الفهرست

العلاقات بين الغرب والشرق، تعرف أم هيمنة ؟

The Relationships Between West and East, know or dominate ?

ربيع العايب*[1] ، المشرف:د. أحمد زيغمي[2]

[1]جامعة قاصدي مرباح ورقلة، مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية والاجتماعية العاطفيةLayeb.rabie@univ-ouargla.dz/Rlaib85@gmail.com

[2]جامعة قاصدي مرباح ورقلة، مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية والاجتماعية العاطفيةA.Zighmi@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/04/27 تاريخ القبول: 2021/05/23 تاريخ النشر: 2021/06/03

ملخص:

برز الغرب، وهيمن على بقية العالم، هيمنة شبه مطلقة، فساد أنموذجه الحضاري علميا وثقافيا وهو ما مكّنه من إعادة صياغة ما حوله من عمران بشري وسبل عيش، ما يدفع كل باحث اجتماعي إلى طرح السؤال عن الأسس الابستيمولوجية، والمعرفية لتلك الهيمنة، كما يدفعه إلى إعادة قراءة علاقة الأنا الغربية، بالأنا الشرقية: أهي علاقة تعرف، أم علاقة هيمنة ؟

إن هذا السؤال يحتاج في واقع الأمر إلى بحث وتقص عميقين، أداته التحليل، ومجاله المتون الدينية والإيديولوجية والإثنية، التي تغذي إيديولوجيا الهيمنة الغربية وممارساتها الوحشية؛ فالحديث عن الذات الغربية وعلاقتها بالذات الشرقية، ليس غوصا في لاشعور الذات المهيمنة فحسب، لكنه دعوة للنظر في الكيمياء، وفي فيزياء السياسية للغرب، وفهم مدى تأثيرها على المزاج العام الذي يحيط بالحوار غرب/شرق في ظل الدعوات المتوالية لحوار الحضارات، والتعددية الثقافية... وغيرها من المسميات المتفائلة ببلوغ توازن حضاري كوني.

كلمات مفتاحية : غرب، شرق، هيمنة، قوة، إيديولوجيا، معرفة

المؤلف المرسل : ربيع العايب،*

Abstract :

The West has emerged, dominating the rest of the world, near-absolute hegemony, spreading its cultural and scientific models, which have enabled it to reformulate the societies and livelihoods around it, leading each social researcher to ask the question of the epistemological and cognitive foundations of that domination, as well as to re-read the relationship of Western ego with Eastern ego; Is it a relationship of acquaintance or dominance?

In fact, this question needs to be examined and explored in depth, with its analytical tool and its delicate religious, ideological and ethnic field, which feeds into the ideology and brutal practices of Western hegemony; Speaking of the Western self and its relationship with the Eastern one, it is not only a dive into the dominant feelings of the self. the West/East dialogue under the successive calls for dialogue of civilizations, multiculturalism, and other optimistic labels of a cosmic civilizational balance.

Key words: West, East, dominance, power, ideology, knowledge.

1 . مقدمة:

في معرض حديثه عن الهيمنة الغربية، في مجلة العلوم الإنسانية الفرنسية كتب "لوران تيستو Laurent Testot" (1967)قائلا: "هيمنة أوروبا-شبه الجزيرة النائية في القارة الأوروآسياوية الشاسعة-على العالم سياسيا، واقتصاديا، وعسكريا من القرن 15 إلى القرن 20. هل كانت مصادفة، أم وفق أسباب موضوعية وقصدية ؟(Testot, 2008, p. 201) ، إن هذا القول إقرار بحقيقة مركزية الذات الغربية وسيادتها على بقية العالم، وهو يطرح سؤال الهيمنة والإقصاء، أكثر مما يطرح سؤال المثاقفة والقبول بالآخر.

سوف نسعى في هذا المقال إلى تحليل الأصول، والأسس المعرفية لتلك الهيمنة الشاملة، وتفكيك علاقة الأنا الغربية بالأنا الشرقية. أهي علاقة تعرف أم علاقة هيمنة ؟

طرح المفكر الإيراني "حميد دباشي" سؤال: هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟ (دباشي، 2016، الصفحات 13-14) عنوانا لكتابه في دلالة عكسية عن رؤية الأوروبيين لغيرهم من الأمم؛ إنهم مدفوعون بنزعات الأَوْرَبَة والغَرْبَنَة حتما، وذلك منذ عهد "فرنسيس بيكون"(Francis Bacon1626-1561) وديكارت"(1596- 1650 René Descartes) على الأقل، وكتابات "ايمانويل كانط"(Emmanuel Kant1804-1724)، التي عدّت أوروبا ذاتا عارفة، يشكل بقية العالم موضوعا واسعا لها، ثم تعمقت هذه النزعة مع كتابات "هيجل"(Georg Friedrich Hegel 1831-1770Wilhelm) عن شمس الغرب كنهاية للكوني. أفرزت هذه النزعة تنامي شعور الغربيين بتعاظم قوة بلدانهم، ومن ثمة فليس الغرب بحاجة لقراءة ما ننتجه نحن، باعتبارنا جزء من المعرفة لا يمكننا التفكير من تلقاء أنفسنا. وكل شيء صادر منا يبقى مجرد رقص حسب "ايمانويل ليفيناس (Emmanuel Levinas1995-1906)" (دباشي، 2016، صفحة 48).

أما الهدف من هذه المحاولة فهو استيعاب المنطق التأسيسي لخطاب الهيمنة، ما يوجب - ضمنيا- مجابهة إشكال منطوقه: هل لهيمنة الغرب على الشرق، متعلقات موضوعية، تجريبية، يمكن الاسترشاد بها براديغما لفهم، وتقييد حروف كل محاولة حالية للهيمنة، يمكن أن تصير واقعا في المستقبل؟

2. الأصول النظرية للهيمنة الغربية:

في كتيب صغير الحجم- يحتوي 130 صفحة- بعنوان ما هو الغرب qu'est-ce que l'occident?، يحاول المؤلف الفرنسي Nemo Philippe(1949ـ) إثبات كل هذه الأشياء العظيمة للغرب:"المدينة،الحرية، المعرفة، المدرسة، القانون، الملكية الخاصة، والفردانية، والإنسانوية، الثورة الأخلاقية الإيمانية، الثورة البابوية، في توليفية فريدة بين أثينا، وروما

والقدس، ثم الديمقراطية الليبرالية، وكل ذلك دون نسيان منجز الغرب الذي يتعذر نسيانه: الحداثة"(Nemo, 2004, pp. 8-15) ، والهدف هو إثبات ميزة فريدة وجوهرية للغرب تجعله على الدوام في غنى عن الاتصال بأي مجال حضاري بعيد عنه، فهو حسب "نيمو" يستطيع على الدوام ، وبقدرة ذاتية أن يؤثر، ولا يتأثر (قرم، 2011، صفحة 46).

تبدو روح عمل"Nemo"، روحا مألوفة جدا، نلمسها كلما تصفحنا أعمال مؤرخ الفكر الفرنسي جون بيير فيرنان(Jean-Pierre Vernant 1914 2007) (Vernant, 1962) أو أعمال الاجتماعي الألماني الشهير ماكس فيبر Max Weber 1864 1920) (فيبر، 2015) (حيث وجهت **النزعة الإغريقية** فكر الأول بوضوح في كتابه أصول الفكر الإغريقي les origines de" la pensée Grecque"، وعملت **النزعة اللوثرية** عملها في توجيه عمل الثاني gesammlte Aufsätze "Religionssoziologie" "مقالات حول سوسيولوجيا الدين" الذي يحمل عنوانا فرعيا هو: "الثقافة البروتستانتية"، وهاهي اليوم توجه أعمال معاصرنا "نيمو" أيضا. ليست النزعتان المذكورتان هما النزعتان الوحيدتان اللتان توجهان العلاقة بين الكتابة والسلطة في الغرب، بل هناك إلى جانب النزعة الإغريقية، والبروتستانتية، نزعتان أخريتان لا تقلان أهمية عنهما من حيث تأثيرهما في تشكيل مفهوم الغرب، هما النزعتان: **اليهودية، والرومانية**، كما ذهب إلى ذلك إرنست رينان يقول:" فنحن الفرنسيون مثلا رومان لغة، إغريق حضارة، يهود ديانة"(Ernest Renan 1823 1892)(Renan, 1883, p. 10)

أمّا كلود ليفي ستروس (1908 2009)Claude Lévi-Strauss، فرغم إقراره بحجم الاعتراضات التي ستجابه كل ادعاء بمركزية الغرب، وبتفوقه الحضاري (شتراوس، 1997، صفحة 39)، إلا أنه يقول: *"...لكن أنظروا حولكم، وانتبهوا لكل ما يجري في العالم منذ قرن واحد، فتنهار كل تأملاتكم. وبعيدا عن انغلاقها على نفسها، تعترف جميع الحضارات الواحدة بعد الأخرى، بتفوق واحدة منها، ألا وهي الحضارة الغربية"* (شتراوس، 1997، صفحة 39)، هكذا حدد ستراوس الحضارة الجديرة بالتسيد؛ وهي حضارة لا تخطئها العين أبدا، فمن السهل إدراكها بمجرد أن ينظر المرء حوله، إنها أمر ظاهر للعيان، يواصل

ستراوس إثباته قائلا:" *ألا نرى العالم بأسره يستعير منها تدريجيا تقنياتها، ونمط حياتها، وأساليب لهوها، وحتى ملابسها"* (شتراوس، 1997، صفحة 39)

لكن السؤال العملي والفاعل هو:" كيف تستطيع ثقافة ما السيطرة على ثقافة أخرى؟" (الوليد، 2010، صفحة 11). سؤال مهذب يحل محل أسئلة كثيرة في مجالات الحرب، والاقتصاد... ومجرد قبول طرحه يعني أننا لم نتحرر بعد من التفكير ضمن براديغم الزوج الحضاري الذي صار براديغما كلاسيكيا في القرن العشرين، وذلك لسبب بسيط هو تأكد النخب الأوربية –بشكل قطعي ربما - من هيمنة الغرب المطلقة على كل ما سواه من بقية العالم، عبر وسائل عدة، أعتاها القوة العسكرية المؤسسة على التفوق التكنولوجي، وأنعمها هو الطرق السلمية بدء من الدبلوماسية الثقافية والتجارية، وصولا إلى المساومات المخابراتية الخفية. كما عبرت عنه باحتشام مداخلات المشاركين في اليوم الدراسي المنعقد بجامعة شيكاجو بباريس، غير بعيد عن المكتبة الوطنية الفرنسية (Cosson & Yaël, 2009, p. 05). وهو أمر مرتبط ارتباطا شبه عضوي بكشف طبيعة العلاقات بين المؤسسات الغربية التي تحكم والأخرى التي تهتم بتكوين النخب تكوينا عاليا يؤهلها للإسهام بفعالية في صناعة القرار.

ومع أن هذه العلاقة هي نفسها علاقة دائمة الإحالة إلى التاريخ كما وردت عند أفلاطون، في تصوره للحاكم الفيلسوف، أو الفيلسوف الحاكم؛ إلا أنه يمكن استجلاؤها في مجال زمني أضيق عبر دراسة ذات منهج بنيوي في الأساس؛ لأن المعرفة المنشودة هاهنا هي تحصيل الجانب الوظيفي في تلك العلاقة، وهي علاقة صارت قابلة للتفكيك منذ أن وضعها ميشيل فوكو (1984 1926)Michel Foucault ضمن مبحث يعالج المركب الوظيفي"سلطة/معرفة" وقد صارت هذه العلاقات اليوم تعبر عن نفسها بوضوح أكبر مما كانت عليه أيام فوكو، ناهيك عمّا كانت عليه في الفضاءات الزمنية التي استعان فوكو بأرشيفاتها لدراسة وتفكيك ذلك الضرب من العلاقة، وهي تظهر في الأنظمة الديمقراطية الليبرالية منضغطة داخل

مسمى صغير هو "الخبير L'expert " أمّا في الأنظمة اليسارية فقد صارت الوظيفة تأخذ تسمية مألوفة هي تسمية "مفكر"، بحسب ما ذهب إليه الباحث الإسباني دانييل إنيرارتي(-1959)Daniel Innerarity (Innerarity, 2010, p. 1046)

وإذا بحثنا عن الأساس العام الذي يستند إليه هذا التفكير، فلن يكون غير تلك الجغرافيا المتخيلة، كما يصفها إدوارد سعيد، وهي جغرافيا رغم استقطابيتها الهائلة المرعبة، تقسّم العالم إلى قسمين غير متساويين؛ أمّا القسم الأكبر "المختلف" فيدعى بالشرق، والآخر المعروف بأنه "عالمنا" [أي عالم الغرب] فيدعى بالمناطق الغربية أو الغرب (سعيد، 2011، صفحة 38).

إن بروز ظاهرة شمولية الحضارة الغربية وتجلياتها، واحتواءها لباقي الثقافات الإنسانية، أرسى مفهوم التمركز، أي استواء الغرب على عرش الحضارة الأم في العالم استواء تمكين لا يتزعزع، بشهادة الجغرافيا الطبيعية التي تقر بسيطرة الغرب على جل أقطار كوكبنا الصغير، كما تشهد على ذلك سيطرته على نسبة قد تبلغ 80 بالمائة من مستعمرات العالم الحديث، وتمكنه من وضع يده على تراث، وتاريخ الأمم القديمة، موصدا عليها أبواب مكتباته، وأقبية مكاتب الشرق الأدنى، والأوسط، والأقصى، وإفريقيا، والعالم العربي، والإسلامي، وإيران في وزارات خارجيته.

وقد صاغ صامويل هينتنغتون(Samuel Philips Huntington 1927 2008) كل هذا في عبارة تبدأ بالنسبية الحضارية، لكنها تنتهي بنزعة استبدادية ترفض كل نسبية حضارية في عصرنا، يقول: *" كل حضارة ترى نفسها مركزا للعالم، وتكتب تاريخها وكأنه الدراما الرئيسية في التاريخ الإنساني، وربما كان ذلك ينطبق على الغرب أكثر مما هو على أي ثقافة أخرى"* (هينتنغتون، 1999، صفحة 90). بهذا تعني المركزية الغربية في مدلولها الاجتماعي والسياسي:*"الممارسة الواعية أو غير الواعية، التي تركز على فرض الحضارة والمصالح الغربية عموما في جميع مجالات الحياة، على حساب باقي الثقافات والحضارات والشعوب، وبكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة"* (الغذامي، 2014، صفحة 28)؛ أي هي الدافع الذاتي

المتمركز على الأنا الغربية التي تهيمن على العلاقة مع الآخر ولا تضع نفسها كآخر في علاقة مساواة معه، لكن في علاقة استعلاء.

إن إثبات هيمنة الأنا الغربية في العالم اليوم، يتجلى من خلال الصراع مع الأخرى الشرقية، وفيه يكمن انتزاع الاعتراف بالذات من طرف الآخر، وفق هذه المتراجحة يبرز الموضوع الفعلي لأطروحة "صدام الحضارات" الذي تناول بالدراسة تلك العلاقة فكما قال هينتنغتون: " فنحن لا نعرف من نكون إلا عندما نعرف من ليس نحن، وذلك يتم غالبا عندما نعرف"نحن ضد من؟" (هينتنغتون، 1999، صفحة 39)، لهذا تجد أمريكا لنفسها عدوا في كل مرة كيما يسهل عليها إدراك ذاتها في مقابله، ثقافيا هو الشرق الإسلامي وعلى الخصوص إيران والعراق أما اقتصاديا فإنها منظمة الأوبك OPEC. وهذه الاستشارة التي قدمها المستشار سيتوارت إيزنستات Stuart Elliott Eizenstat- 1943 تبيّن ذلك، يقول: *" ينبغي علينا أن نتخذ إجراءات قوية لنعبئ الأمة الأمريكية، ونحشدها حول أزمة حقيقية وأمام عدو حقيقي، هو منظمة الأوبك"*.كانت هذه العبارات القوية التي قُدمت للرئيس الأمريكي جيمي كارتر Jimmy Carter (- 1924) فكرة واضحة عما ينتظره من استثمار سياسي داخلي في أزمة أوبك الخارجية، كما كانت كافية كي يتخذ منها الرؤساء الأمريكان اللاحقون أنموذجا موسعا لقيادة العالم عبر خلق عدو موحد للبشرية المعاصرة. وهو مثال يمكننا العودة إليه مع تحليلات إدوارد سعيد الصارمة لبنية الهيمنة الغربية على العالم (سعيد، 2011، صفحة 37).

3. هل من دور للعلمانية في كل ذلك؟

لا يمكننا إنكار دور العلمنة في صنع مركزية الغرب الحالية، فإذا كان المصطلح علماني ترجمة لكلمة (سيكيلاريزم *Sécularisme*) الانجليزية، أُستخدم مصطلح (*Secular*سيكولار) لأول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عاما (1648م) بعد توقيع تفاهمات ويستفاليا وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة، وهو التاريخ الذي يعتمده كثير من المؤرخين بداية لمولد الظاهرة العلمانية في الغرب. كان معنى المصطلح في البداية محدود الدلالة، ولا يتسم بأي نوع من

أنواع الشمول أو الإبهام" (المسيري و العظمة، 2000، صفحة 12). إلا أن أول من دقق في المصطلح وطرحه بمعناه الحديث وحوله إلى أحد أهم المصطلحات في الخطاب السياسي والاجتماعي والفلسفي الغربي هو "جون هوليوك *John Holyoak (1817-1906)"* (carus, 1896, p. 4929)، إذ عرّف العلمانية بأنّها:"الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية، ودون التصدي لقضية الإيمان سواء بالقبول أو الرفض...والحديث عن إصلاح حال الإنسان ليس حديثا محايدا، كما قد يبدو للوهلة الأولى، بل هو يفترض وجود نموذج متكامل ورؤية شاملة للإنسان، والكون، مقيدة الأحرف ضمن منظومة معرفية، وقيمية يمكن إصلاح حال الإنسان حسبها" (المسيري و العظمة، 2000، الصفحات 12-13).

إن العلمنة في الغرب كانت تعني انتصار الأنموذج الإنسانوي على الأنموذج اللاهوتي، وهذه المسألة في غاية الأهمية، يزيد من تأكيدها إلتجاء الانسانوي إلى العلمي، فصار الإنساني والعلمي وجهان لعملة واحدة، وصار اللاهوتي واللّاعلمي وجهان لعملة أخرى، شُرع في نبذها شيئا فشيئا، حتى صار نبذها هذا هو هوية الغرب نفسه، وإلا كيف استطاع "ماكس فيبر" أن يُعرف الغرب البروتستانتي الحديث بهذه الميزة التي هي مثلبة ترمي بها الكاثوليكية في وجه البروتستانت المتعلمنين: "يندد الكاثوليك بـ"النزعة المادية" باعتبارها نتيجة لعلمنة كافة مضامين الحياة، أسفرت عنها تعاليم المذهب البروتستانتي وأفرزتها" (فيبر، 2015، صفحة 41).

وإذا ما تابعنا واحدا من التحليلات الطريفة، والعميقة في آن واحد، والتي استشهد بها "فيبر" فسوف نستنتج من مقولة العلامة Offenbacher- ذكره فيبر في كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية- أنه على المسيحي أن يختار بين أمرين؛ إمّا أن يأكل شهيا ومليا، أو أن ينام هنيئا وعميقا، فإذا آثر الأكل الشهي الوافر فسيكون بروتستانتيا بكل تأكيد، أما إذا اختار النوم الهادئ ملئ الجفون فلا مناص أن يكون كاثوليكيا في هذه الحالة (فيبر، 2015، صفحة 41).

إيثار الدنيا وملذاتها يحيل بشكل دائم، إلى اتخاذ موقف لا مبالي بالحياة الآخرة، كما في كل الديانات، وكما في كل منطق، ولا يمكن أن يجتمع حب ملذات الحياة الدنيوية، وحب فردوس الحياة الأخروية بشكل عادل مهما حاول المرء؛ لكن عبقرية البروتستانتية الجوهرية تمثلت في تمكنها من حلِّ هذا الخلاف دون الوقوع في أي شكل من أشكال التلفيق، كما ظل "فيبر" يحاول إقناعنا به في تأملاته المعززة بالإحصائيات عن نسب إسهام أتباع الطوائف المختلفة في التجارة، والمهن الحرة، ونسب إقبالهم على التعليم الثانوي والتعليم العالي، (فيبر، 2015، الصفحات 38-39)، وهذا هو ما جعلها تشكل تمهيدا ضروريا- ينبع من قلب الدين نفسه- لكل علمنة مستقبلية ممكنة في أوروبا.

ولأننا –نحن الشرقيون- قد قبلنا أن تكون مفاهيمنا، وأدواتنا التحليلية أدوات تصدر عن المركزية الغربية، فقد صارت نخبنا تنظر إلى المفاهيم المنجزة هناك-في المركز- على أنها مفاهيم لا تقبل التعقيب، فقد تم تقديم العلمنة على أنها عصى الغرب السحرية، وليست مجرد مكون من مكونات إعادة الهيكلة التاريخية التي مارسها الغرب المسيحي على نفسه. وهذا ما به يعترف المسيري فيقول: "منذ ما يسمى "عصر النهضة" في تاريخ الفكر الغربي ومعظم تعريفاتنا للظواهر الإنسانية تستند إلى تعريفات الغرب وتجاربه، فنحن نستورد كثيرا من مصطلحاتنا من الغرب، وهو ما يبين إيماننا بمركزية الغرب وعالميته" (المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، 2002، صفحة 59).

ولأن العلمانية "ترتبط -في جذرها اللغوي-بالأمور الزمنية؛ أي بما يحدث في هذا العالم وعلى هذه الأرض، في مقابل الأمور الروحانية التي تتعلق أساسا بالعالم الآخر، لأن العلم الحديث لم يظهر إلا منذ بدء التحول نحو انتزاع أمور الحياة من المؤسسات التي تمثل السلطة الروحية وتركيزها في يد السلطة الزمنية" (المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، 2002، صفحة 61)؛ فإنّ أثرها كان أثرا هائلا من الناحية التاريخية، حتى أنه يمكننا القول بأن الغرب ما قبل العلمنة والغرب ما بعد العلمنة ليس غربا واحدا.

فهل فعلا أدى تضعضع الأنموذج اللاهوتي الكاثوليكي إلى قيام غرب حديث بشكل حتمي وآلي ؟

إنّ التقنية هي التي أدت إلى قيام هذا الغرب الجديد (المعلمن)، وهي التي استطاعت أكثر من العلم أن تجهز على الأنموذج التقشفي الذي مثلته الكاثوليكية طويلا، وليس صحيحا أبدا القول أن العلمنة هي التي أدت إلى ظهور هذا الغرب على هذا الوجه الفتاك بمن حوله، وليس قبول هذا الإدعاء إلا شكل من أشكال وضع العربة أمام الحصان في تقديرنا، ونبذ هذا الفرض هو الذي سيتيح لنا استيعاب المركزية الغربية استيعابا موضوعيا، ويبعدنا في الآن نفسه عن الاستجابة الانفعالية لآثار المركزية الغربية. ومن هذا المنظور، فإنّ قبول تعليلات فيبر ممكن في سياق غربي غربي، حتى وإن كان فيه تمييز هائل بين شرق أوروبا، وغربها، وحتى إن كان فيه تمييز واضح بين الطوائف والطبقات؛ إلا أنّها سوف تكون تحليلات مضللة كلما حاولنا الاستعانة بها في تفكيك علاقتنا بالمركز.

ويمكن رصد أولى الآثار المادية لتفوق العلم الذي مهد لتقنية ظافرة، منذ عام 1543م، وهو العام الذي صدر فيه كتاب (كوبرنيك Nicolaus copernicus Mikolaj Kopernik بالبولندية 1473 1543) المعنون بـ " De" Revolutionibus Orbium Coelestium Libri VI المجموعة السادسة "حول دوران الأفلاك السماوية "هذا التاريخ يمكن عدّه مستهلا تاريخيا جديدا، وحدا فاصلا بين اضمحلال العصور الوسطى، وبزوغ فجر العصر الحديث، وطبعا ليس لوحده، فالنقد المتأثر بالعلوم يمكن عدّه شكلا من أشكال الهدم الثقافي للعقائد في نفوس الناس، لكن هدم المؤسسات الممثلة لتلك العقائد سوف يبقى بالضرورة أمرًا متعذرا حتى يمتلك أولئك الناس التقنية الكافية لهدم تلك المؤسسات وإحلال مؤسسات جديدة محلها.

ويمكن في هذا السياق الاستئناس بأعمال المؤرخ الهولندي هويزينغا (Johan Huizinga 1872 1945) ولاسيما كتابه اضمحلال العصور الوسطى للتقليل من أهمية التعليلات التي قدمها "فيبر" حول قيام صلة فعلية بين العلمنة والنزعة المادية. يقول عن القرنين الرابع

عشر والخامس عشر:" *واستطيبت المراتب الرفيعة، والثروات بجشع أكبر، وتناقضت بشكل أوضح مع ما حولها من شقاء وبؤس، ونحن لن نستطيع أن نفهم*[اليوم] *المتعة البالغة التي كان يستمتع بها الناس في الماضي، حينما يحصلون على معطف من الفراء، أو حين يصطلون على نار متأججة في المدفأة، أو*[حينما يسلمون أجسادهم للنوم على] *فراش وثير..."* (هويزنجا، 1998، صفحة 13)

إذا كان الحرمان متعدد الجوانب هو الميزة الأساسية لحياة أكبر قدر من الناس في العصور الوسطى الأوربية؛ فالأكيد أن الحداثة قد منحت الناس الوفرة، ولا وفرة كما هو معلوم سوى عبر تقنية تنوب على الأبدان المنهكة. ولهذا فليس من العسير القول أن التقنية قد منحت الناس الإشباع الذي تحول إلى فائض فيما بعد، وهذا الفائض ليس فائض قيمة مادية تمثلها الفوائد المتراكمة حول رأس المال فحسب؛ بل هو فائض قيمة معنوية أيضا، مثلتها الجرأة والجسارة والسعي إلى اكتشاف كل غامض، وإلى تملك كل متمنّع، بعد أن كان الحرمان يُحيل دائما إلى الانعزال، والانكفاء عن الآخرين.

4. __الصيغة المعلمنة للمواطنة:__

ولو أردنا العودة إلى الوراء فسوف نصل بكل تأكيد إلى اكتشاف نوع متين من علاقة الفصل بين المواطنة الإسبرطية، والخوف الشديد من الأجنبي الذي احتل الإسبرطيون أرضه وحولوه إلى عبد"هلّوت" عندهم، ولهذا فلا يؤتمن جانبه أبدا، لأن حنينه الدائم إلى الانعتاق والتحرر دائم الحضور في هواجس الإسبرطي، الذي اضطرته وضعية المُهيمن التي حصل عليها بعد أن غزا جيرانه الشرقيين متجاوزا جبال "**تايجيتوس**" إلى ضرورة انتداب نخبة مزودة بالسلاح وبالقناعات كي تبقى يقظة على الدوام إزاء أي ثورة محتملة للعبيد (هيتر، 2007، صفحة 20)، في تأهب دائم لحماية الدولة التي هي دولة دائمة الخوف من ثورة الأجنبي الذي صار عبدا بعد أن تم الاستيلاء على أرضه، وهو وضع يتسم بقدر كبير من

المفارقة السياسية والاجتماعية، فلماذا لا يتم التخلص من هذا الأجنبي الذي يسبب صداعا دائما للنخبة الحاكمة ؟

إنّ هذا السؤال غير قابل للإجابة المباشرة، وأقصى ما يمكننا إزاءه، هو القول بأن المفارقة السياسية الاجتماعية التي تتمثل في الحاجة الماسة إلى جهد هذا العبد غير الإسبرطي، تتقاطع بشكل حاد مع الخوف منه، وهي مفارقة تفسيرها اقتصادي كما نرى، ومع ذلك سوف يتحتم لمعالجة هذه المفارقة الاستعانة بمفارقة أخرى تتمثل في خلق نخبة مستعدة لقمع كل تمرد بمنتهى الحزم، دون أدنى تفريط في خلق الحاجة لدى العبيد كي يرتقوا بوضعهم إلى مرتبة قريبة من مرتبة المواطنين بالاندماج الكامل في كل عادات، وتقاليد وعقائد أسيادهم؛ تجنبا لكل مضايقة تسبق القمع، وتعطيه مشروعيته. وفي المفارقة الأولى تتأسس النخبة المزودة بالسلاح وبأقصى درجات الاقتناع الذي قد يبلغ درجة الاعتقاد، على شرعية الدفاع عن الوطن، وهذه الشرعية هي التي تمنح امتيازا مخصوصا ومتفردا في الآن نفسه؛ هو امتياز المواطنة الحقة؛ فالأحق بالشيء هو من يعيش على استعداد دائم للتضحية من أجله ضد تهديد ما، وهكذا نصل إلى أن أولى أشكال المواطنة الإسبرطية قد ارتبطت أساسا بالآخر المتربص رغم أنه يعاني من العبودية.

إنّ أهمية مثل هذا التذكير الموجز بما تجعله النخب الغربية منشأ موحدا لحضارتها، تنحصر في لفت الانتباه إلى عمق تغلغل الآخر(الأجنبي، العبد، البربري) غير المواطن في رفد مشروعية تأسيس رابطة مدنية جديدة وفعالة تضم المواطنين الأحرار الذين تأكدت حريتهم بناء على عامل حاسم واحد، واقعي وتاريخي غير قابل للتشكيك مطلقا هو أنهم ليسوا عبيدا لأحد؛ بل هم الذين استعبدوا الآخر، وسخروه لخدمتهم، وقدموا أكبر الامتيازات للنخبة التي تقوم بدور الرقيب الحذر القوي الذي يعد أنفاس العبيد المغلوبين،كي يتوقع تمرداتهم، فيقمعها في المهد، وقبل الأوان. مع الأخذ في الحسبان ذاك التحول التاريخي الحاسم الذي عرفته الدولة المدينة، بتحولها إلى دولة مترامية الأطراف صارت تسمى إمبراطورية، مثلتها روما

أحسن تمثيل. وذلك قبل مجيء المسيحية التي صارت صبغة دينية للإمبراطورية بعد أن تم سلخها من أصلها الشرقي.

رغم كل ما تثيره فينا - نحن الشرقيون- مثل هذه الإدعاءات من رغبة جامحة في الردّ عليها بأقوى عبارات الاستنكار والتنديد؛ إلاّ أنه لا مكان لهذا كله في مقام التحليل العقلاني، وفي مقام إنشاء مقالة بعيدة عن رد الفعل، بقدر ما هي قريبة من محاولة الفهم والاستشكال الموضوعي، فما الذي يجعل تمثل الغرب قائما عند ثلة من نخبه ومفكريه على أساس الخوف من الآخر الذي عمدوا هم إليه استعبادا واستغلالا ؟

نظل بحاجة كي نفرق بين الآخر الذي تم استيعابه بطريقة من الطرق(الاحتلال، الاحتواء، الإدماج، التعليم، الوظيفة...الخ) والآخر الذي لم يتم احتوائه بعد، فهذا الأخير هو الذي يحتم استعدادا للمجابهة يفوق مجرد الحذر والاستعداد للقمع بالنسبة للأجنبي الذي تم دمجه ضمن المنظومة الحضارية الغربية، أمّا أكبر المخاوف فهي من اتحاد هؤلاء بأولئك على أساس المفارقة الحضارية بين عالمين يستحيل حمل أحدهما على الانحلال في الآخر بالقوة.

إذا كانت كل مقابلة بين الذات والآخر تستدعي بالضرورة إنشاء نظام كامل للمفاضلة بين طرفيها، فإن النتيجة المنتظرة من إجراء هذه المفاضلة، بما هي عملية حاصلة ومعلولة أساسا بوجود زوج حضاري يتعذر فهمه بعيدا عن هذا الضرب من العلاقة، "زوج" فهذا يعني أننا سوف نكون أمام سؤال ذو طبيعة تاريخية: منذ متى صار الغرب والشرق يشكلان زوجا حضاريا يصعب فهم واستيعاب طبيعة أحد طرفيه بعيدا عن الآخر؟ سنقبل في البداية أن الشرق أكثر تعقيدا، وأكثر غموضا من الغرب؛ لسبب بسيط وهو أن الغرب الذي شرع يعيد وضع نفسه في المركز منذ مطلع القرن العشرين لا يمكنه لهذا السبب ذاته أن يكون أكبر من الشرق جغرافيا، وأكثر تعقيدا، وغموضا منه ثقافيا.

ولن نعود هنا لآراء المفكرين والفلاسفة الغربيين الذين رأوا في الشرق نوعا من السحر، وشغفوا به لهذا السبب تحديدا، كما شغف الملك شهريار بحكايات شهرزاد. وبالفعل فعالم ألف ليلة وليلة هو نفسه العالم الشرقي في نظر هؤلاء الذين أمكن تسميتهم مستشرقون في وقت مبكر من القرن التاسع عشر (ريغ، 2008، صفحة 17)؛ لأن المستشرق يبدو في صورة المتأثر أكثر مما يبدو في صورة المؤثر، وهذه الصورة التي يقدم فيها المستشرق نفسه لا نحسب أنها تروق لأمثال السيد "فيليب نيمو" لأنه لا يستطيع قبول واقعة أن يتأثر الغربيون بالشرق.

ونحن بدورنا لن نهتم لهؤلاء المستشرقين الذين وقعوا تحت السطوة العاطفية والأدبية للغات الشرقيين، وعاداتهم، وعقائدهم، ومنجزاتهم المادية؛ بقدر ما سنهتم بأولئك الذين لم يقعوا تحت تلك السطوة، مادمنا لا نعالج مواقفهم كما لو أنهم قد أفلتوا من الوقوع تحت السلطة الأدبية للشرق بإرادتهم الحرة فقط، بل سنحاول معرفة وتحليل أسبابهم العميقة التي لم يقف مفعولها عند تحصينهم من عدوى الشرق فقط، بل أيضا الأسباب التي جعلتهم يفكرون في الغرب بعيدا عن براديغم "الزوج" الحضاري، وقريبا جدا من براديغم "الأحادية" الحضارية المطلقة للغرب. وهو ما يعني أننا سنلجأ مرة أخرى للمنهج التاريخي، فنطرح السؤال: منذ متى لم يعد الغرب ينظر إلى نفسه ضمن براديغم الزوج الحضاري" غرب- شرق" وأحل محل ذلك براديغم الأحادية الحضارية ؟

إذا قبلنا بأن كل محاولة تسهم في الإجابة عن هذه التساؤلات، وأمثالها سوف تكون بالضرورة محاولة مندرجة في إطار ثقافي اصطلح على تسميته بالمابعد كولونيالية؛ ولو كانت تطرح سؤالا قريبا من موضوعنا" كيف تستطيع ثقافة ما السيطرة على ثقافة أخرى؟" (الوليد، 2010، صفحة 11). نستطيع هنا تقديم فرض ينظم علاقات التشارط القائمة بين التعرف والهيمنة على هذا النحو: إنّ تزامن تعرف الغرب على الشرق بتنامي عوامل القوة في الغرب، وتهاويها في الشرق، حوّل علاقة الغرب بالشرق من علاقة تعرف واكتشاف(وحتى انبهار في مرحلة ما) إلى علاقة احتواء ونفوذ وهيمنة فيما بعد (chebel, Attali, & stephanie,

(41-40 .pp ,2012، وأنّ هذه المقدمة الخطيرة هي الخطوة التاريخية الضرورية التي مهّدت إلى الإعلان عن نهاية التاريخ في وقت لاحق -كما عبّر عنها الشرقي فوكوياما-. بوصفها لحظة إعلان موت الجدل ميتافيزيقيا (في تمثل الغربيين للشرق، وفي المخيال الجماعي للغرب) وواقعيا أيضا (في تقارير الخارجية الأمريكية، وفي البرامج الموجهة للتعامل مع المجتمعات- وليس الدول- في آسيا، وإفريقيا، وأوربا الشرقية) منذ أن اجتمع سفراء أمريكا في اسطنبول عام 1950. إن ما يهمنا غير هذه التصنيفات هو بالتحديد نفس السؤال الذي جابهته ولازالت تجابهه النظرية الأدبية مابعد الكولونيالية: وهو لا يهمنا إلا بقدر ما نكون قد سلمنا ضمنيا بذاك الدور الحاسم للثقافة في تحقيق أو تعطيل كل عملية هيمنة، واقعية كانت أو ممكنة فحسب؛ وهو ما يعني أننا سوف ننطلق من افتراض يرفع الثقافة إلى مقام الشرط المنطقي الذي تتوقف عليه كل هيمنة ممكنة.

لكن يبقى كل تأثير ثقافي ممكن، محكوما بتوفره على حامل يتولى نشره في فضاءات الجغرافيا السياسية المستهدفة، بغض النظر عن نقله لها حيث هي؛ أو انتقالها هي إليه حيث قواعده الفكرية والمعرفية. وهذا الحامل هو بلا شك كل وسيلة تؤدي دور الاتصال والتواصل. ومع أن كل سعي للاتصال بالآخرين، والتواصل معهم قد يحمل في جانب منه تطلعا للثقافة بما هي غاية نبيلة في ذاتها، أو أنه ينظر للثقافة نظرة سقراطية بوصفها فضيلة في ذاتها؛ إلا أنّ جوهره يبقى دينامية هادفة وذات غايات تتجاوز تحقيق ما يمكن تسميته بسعادة الأنفس التي تجد في المعرفة بهجة لا تنفد، كتلك البهجة السعيدة التي حدثنا عنها أرسطو(Ἀριστοτέλης 384 ق م 322ق م) في رسالته إلى ثيمستوس ملك قبرص (أرسطو، 2007)؛ بل هي اليوم عملية معولمة، معقدة، ومنظمة، تطال كل فضاءات الجغرافيا السياسية بغية ترويض وحوشها، حاملة معها مضامين ظاهرها ثقافي، وباطنها قمعي وتسلطي (ماتلار، 2003، صفحة 382).

5.الغرب والشرق ومسالك الهيمنة :

لقد بات في حكم المؤكد أن العالم قد صار اليوم متشابكا من الناحية الاتصالية، ولم يعد بالإمكان القول بوجود عوالم منفصلة كما كان من الممكن ادعاؤه قبل القرن التاسع عشر، فخرائط الموجات السلكية واللاسلكية، وذبذبات الراديو، ونطاقات مسح الأقمار الصناعية، تبين أن كوكبنا ملفوف ومغطى بعشرات الآلاف من كيلومترات الوصلات ذات الغايات الاتصالية، وأنه مغمور وسط مجال ذبذبي كهرومغناطيسي عارم(Remaud) . إلاّ أن كل آثار هذه الثورة في الاتصالات المعاصرة، إن كانت تفشي سرا واحدا، فلن يكون غير الإفصاح عن أن عالمنا قد بات يعاني من تباينات غير تقليدية بين متحكمين في وسائل الاتصال بوصفها أدوات رقابة في المقام الأول، والمستهلكين لتلك المخرجات بوصفها سلعا تحقق إشباعا من نوع فضفاض، وغير محدد بعد؛ فالشبكات لم تخلق وحدة عالمية من أي نوع كما كان مأمولا عند رواد الاتصالات الأوائل.

فلقد خلق الاتصال الفائق فوبيا اتصالية ترجمتها - خير ترجمة- المجادلات الأخيرة بين أمريكا والصين بخصوص التداعيات المحتملة لهيمنة الصين على تكنولوجيا الجيل الخامس G 5 ببلد العم سام؛ إنّها فوبيا نقرأ فيها ما يتجاوز مجرد تنافس ذو طبيعة تجارية بحتة، بقدر ما نقرأ فيها رهابا وفوبيا حضارية عارمة تمكنت من قلب العالم الغربي فزحزحته من حالة المنفتح على العالم، المولع بتحطيم أسوار الأنظمة الدكتاتورية المنغلقة على نفسها، إلى دولة تخشى على أسرارها المدنية والعسكرية أن يتم السطو عليها ممن كان يعتقد إلى وقت قريب أنه يقع في هامش العالم، ألم يقل هيغل عن الصينيين أنهم:" *إمبراطورية قديمة، وكل مؤسساتهم، ودستورهم، وثقافتهم وفنونهم هي مجرد أمور قديمة جدا، تقدمت انطلاقا من بداية بربرية وصولا إلى درجة معينة من الثقافة، والحال بما أنّهم يفتقرون إلى الإحساس بتطور الروح فهم يملكون فقط ثقافة تُثَبّتُ نفسها من داخل مبدئها؛ ولهذا فلا بد من عدّ*

فلسفتهم فلسفة متصلبة لا يمكنها أن تمدنا سوى بتعميمات وتجريدات فارغة"؟ (هيجل، 2002، صفحة 232).

لهذا نجد هيجل في كتابه"محاضرات في تاريخ الفلسفة" يوصي طلابه بلغة آمرة قائلا: " ما هو شرقي يجب استبعاده من تاريخ الفلسفة" (هيجل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، 1987، صفحة 199)، فهل أمكن لفيلسوف برلين أن يضع الصين في ذلك الموضع الأقل شأنا لو لم تكن المعلومات التي وصلته عنها معلومات دوّنها مبشرون دينيون في الأساس؟

لقد كان اتجاه الغربيين نحو الشرق يحركه الفضول والمغامرة أول الأمر، لكن ما لذت به أعين الرحالة والمكتشفون الغربيون سرعان ما صار محل طمع اليد، كيما تستحوذ عليه وتجعله في مُكنتها، وليس من الصدفة أن تزامنت الاكتشافات الأوروبية نحو بقية العالم عبر المحيطين الأطلسي، والهادي، وبحر الصين بانبلاج فجر الفلسفة التجريبية، فأبناء المعرفة البررة كما كان يقول فرنسيس بيكون (Francis Bacon 1561 1626) إنّما هم أولئك الذين تمكنوا من عبور الأفنية الخارجية للطبيعة تلك التي وطأتها الحشود، وافتتحوا في النهاية منفذا إلى غرفها الداخلية، ولكي يوضح ما يعنيه فقد قرر أن يعطيه اسما هو: "interprétation of nature" تفسير الطبيعة (بيكون، 2013، صفحة 13).

الملاحظة الأولية من هذا الاستهلال، هي أن التعرف على العالم غير الغربي لم يفض أبدا إلى التواصل معه، بقدر ما أفضى إلى محاولة في الاستغلال والهيمنة، وهي عملية تاريخية معقدة، نسميها -تعاطفا-محاولة، رغم أنها كانت عملية ظافرة في كثير من الأحيان، بدليل أنها حققت للغرب هيمنة مديدة على بقية العالم. ولأن النقد الموضوعي لا يتم إلا عبر التحليل المنطقي الذي يستهدف صورة المعرفة أكثر من مادتها، فلن نحاكم الغرب محاكمة أخلاقية، بقدر ما نحاول فهم الضرورة الكامنة في الغرب وفي الشرق معا، والتي أدت إلى ظهور وتحقق محاولة تاريخية ممتدة في الزمان والمكان، تمكنت من صياغة العالم صياغة ثنائية طرفاها: مُهيمِن ومهيمن عليه.

إن هذه المحاولة النقدية تهدف إلى استيعاب المنطق المؤسس لهذه الهيمنة التي أصابتنا، فصارت مصابنا، ولأنه ليس أذهب للمصاب من أن تعلو فوقه، وتقتله رصدا وبحثا، وفهما ثم تشرب في جمجمته العبرة (بوئثيوس، 2008، صفحة 23)، فإنه قد تحتم علينا أن نعيد صياغة سؤال الهيمنة في صورة استشكال مفاده: كيف تنشأ الرغبة في التعرف على الآخر؟ يبدو هذا السؤال سؤالا تأسيسيا لتفكيك بقية أسئلة الهيمنة المتداولة بين فاعلي المركز ومنفعلي الهامش، فالأولون-فاعلوا المركز- يبحثون عن الكيفية المثلى للهيمنة على الآخر، والآخرون- ضحايا المركز والمنفعلون إزاءه- يتساءلون عن أنفسهم (ثرواتهم، ومواردهم) بأي ذنب أُخذت ؟

الخاتمة:

ختاما، إن هذا النزوع الغربي إلى الهيمنة انعكس على مقولات الغرب التنويرية التحررية، فكانت العلمانية ممارسة مجاوزة لكل القيم الروحية والأخلاقية لتعلن عن قيام إمبريالية جديدة تستوعب العالم الشرقي، أو هو الذي يستوعبها. -لا فرق هنا-، ففي كلتا الحالتين تُسحب شعوب الشرق إلى خارج بيئتها الثقافية. أما اليوم فقد أفرزت العلمانية قيمة علمية بارزة هي التقنية، وأصبحت بذلك التقنية جزء من عقيدة عالمية، أذنت بتجلي إله جديد وهو العلم كما عبر عنه سيرج لاتوش (لاتوش، 1992، الصفحات 24-25).

وفي مقولة المواطنة، تنجلي الغربنة، إذ هي مفهوم كرّس هيمنة الغرب على مختلف الخطابات والمفاهيم الفلسفية والفكرية المتداولة، فقد جُعل شرط تحققها هو دمج الأجنبي أو البربري أو المتخلف في ثقافة المهيمِن، وجعل مقدار الاندماج هو معيار التحضر، أما البقاء بعيدا عن نمط الغرب، فهو بربرية -إلى حد ما- بهذا يبقى الصراع والاختلاف هما السمتان البارزتان اللّتان تطغيان على العلاقة بين الشرق والغرب، ونحن إذ نراها ضرورية لفهم ثقافة كل واحد منهما، فإنها تشكل عائقا أما التثاقف والتبادل المتوازي لشتى المقومات المعرفية للعالمين (شرق/غرب)، لأن معوقات الحوار بينهما أكبر من السبل التي تعزز علاقة التعارف، فبالإضافة إلى ما ذكرنا، نجد الموروث والذاكرة التاريخية المؤلمة التي ترسخت في أذهان

الشرقيين؛ حاضرة في تحديد نمط العلاقة، أين مثلت هذه المحاكم أسوء الفصول دموية في أوروبا ضد الشرق والمسلمين على وجه الخصوص، زادت حتى عن الحروب الصليبية.

وتصطدم مساعي التقارب شرق/غرب بنبؤة صامويل هينتنغتون بصدام الحضارات، ونبؤة فوكوياما بنهاية التاريخ والإنسان الأخير في الغرب، وغيرها من النظريات التي أفرزتها أبحاث المستشرقين وحتى علماء الانثروبولوجيا، إذ أن جل تلك النظريات تحمل في طياتها بذور التفرقة والتباعد بين ثقافات الشرق والغرب. هذه الدلائل جميعها، تفيد بأن مستقبل الحوار بين حضارتي الشرق والغرب لن يشهد انفراجا ملحوظا في المدى القريب ما لم تزول العوائق الحقيقية التي تحول دون تقارب أو تفاهم إلا في شروط محددة.

قائمة المراجع:

أ- **باللغة العربية:**

1) أرسطو .(2007) .دعوة الى الفلسفة .éd)ط) .(1ف .الشنيطي (.Trad ,بيروت :دار التنوير.
2) الغذامي ,ع .(2014) .المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الإنسان .éd)ط .(1جدة :مركز التأصيل والبحوث.
3) المسيري ,ع .(2002) .العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة .éd)ط .(1القاهرة :دار الشروق.
4) المسيري ,ع & ,.العظمة ,ع .(2000) .العلمانية تحت المجهر .éd)ط .(1دمشق :دار الفكر.
5) الوليد ,ي .ب .(2010) .الوعي المحلق)ادوارد سعيد وحال العرب .(القاهرة :مكتبة الأسرة.
6) برولي ,إ .(2008) .تاريخ الكثلكة .éd)ط) .(1ج .زناتي (.Trad ,بيروت :دار الكتاب الجديد.
7) بوئثيوس .(2008) .عزاء الفلسفة .éd)ط) .(1ع .مصطفى (.Trad ,القاهرة :دار رؤية.
8) بيكون ,ف .(2013) .الأورغانون الجديد)ارشادات صادقة لتفسير الطبيعة .éd) (ط) .(1ع .مصطفى , (.Tradالقاهرة :دار رؤية.
9) دباشي ,ح .(2016) .هل يستطيع غير الاوروبي التفكير؟ .éd)ط) .(1ع .الاحمد (.Trad ,ميلانو :منشورات المتوسط.
10) ريغ ,د .(2008) .رجل الإستشراق .éd)ط) .(ا1 .صحراوي (.Trad ,الجزائر :دار التنوير.
11) سعيد ,إ .(2011) .تغطية الإسلام) .م .كرزون (.Trad ,سوريا :دار نينوى.
12) شتراوس ,ك .ل .(1997) .العرق والتاريخ .éd)ط) .(2س .حداد (.Trad ,بيروت :المؤسسة الجامعية.
13) فيبر ,م .(2015) .مقالات في سوسيولوجيا الدين .éd)ط) .(1م .الفندري (.Trad ,بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية.

14) قرم ,ج .(2011) .تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب .éd)ط) .(1ر .ذبيان (.Trad ,بيروت :دار الفارابي.
15) لاتوش ,س .(1992) .تغريب العالم .éd)ط) .(1خ .كلفت (.Trad ,القاهرة :دار العالم الثالث.
16) لوبون ,غ .(2013) .حضارة العرب) .ع .زعيتر (.Trad ,القاهرة :مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
17) ماتلار ,أ .(2003) .اكتشاف المواصلات والاتصالات .éd)ط) .(1ر .صوما (.Trad ,الجزائر.ANEP :
18) هويزنجا ,ي .(1998) .اضمحلال العصور الوسطى .éd)ط) .(2ع .ا .توفيق (.Trad ,القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب.
19) هيتر ,د .(2007) .تاريخ موجز للمواطنية .éd)ط) .(1آ .ناصر & ,خ .مكرم (.Trads ,بيروت :مركز البابطين ودار الساقي.
20) هيجل .(1987) .محاضرات في تاريخ الفلسفة .éd)ط) .(1خ .أ .خليل (.Trad ,بيروت :المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
21) هيجل .(2002) .محاضرات في تاريخ الفلسفة .éd)ط) .(3خ .أ .خليل (.Trad ,بيروت :دار مجد.
22) هينتنغتون ,ص .(1999) .صدام الحضارات)إعادة صنع النظام العالمي .éd) (ط .(2مكتبة سطور.

ب – باللغة الأجنبية:

23) carus, P. (1896). the open court. Aweekly Journal devoted To the Religion of Science .
24) chebel, M., Attali, J., & stephanie, B. (2012). le religieux, element structurant de notre avenir (éd. 2). paris: edition Robert Laffont.
25) Cosson, O., & Yaël, D. (2009). Quelle Pensée coloniale? Revue d'histoire intellectuelle (27).
26) Innerarity, D. (2010). savoir et pouvoir, les rapports entre deux sortes d'incertitude. paris: l unnuaire du college de frace.
27) Nemo, p. (2004). Qu'est-ce que L'Occident? . paris: PUF.
28) Remaud, p. (s.d.). une histoire de l'électricité De L'Ambre frotté Aux systèmes de télécommunication,. Récupéré sur diapositive exposée au sien du laboratoire LAII-ENSIP: http://laii.univ-poitiers.fr/remaud/
29) Renan, E. (1883). L'ISLAM et la SCIENCE . paris: l archange Minotaure.
30) Testot, L. (2008, aute). Comprendre l'hégémonie occidentale. reveue science humaines (12).
31) Vernant, J.-p. (1962). Les origines de la pensée grecque. paris: PUF.